مجلة جامعة النجاح للأبحاث، (العلوم الإنسانية)، المجلد ١٧ (١)، ٢٠٠٣

الصورة الساخرة في شعر الحرب عند شعراء الدولتين:الزنكيّة والأيوبية

The Cynical Image in War Poetry with the Poets of the Zankia and Ayyoubean States

نزار وصفي اللبدي

كلية العلوم التربوية، وكالة الغوث، الأونروا، المقابلين، عمان، الأردن.

بريد الكتروني: *dnizar@hotmail.com*

تاريخ التسليم: (٢٠/١/٢٠٠٢)، *تاريخ القبول:* (٩/٢/٢٠٠٣)

ملخص

تناولت هذه الدراسة نماذج من الصور الساخرة بالعدو المنهزم أيّام الحروب الصليبية. وتبيّن للباحث من خلال النظر في تلك النماذج أنّ الشعراء سلكوا طرقاً مختلفة لرسم تلك الصور، لعل من أظهرها بناء الصورة على المفارقات وإعلاء التقابل بين جانبين: الأمل وخيبة الأمل، ورسم مشاهد طبيعية في صور معكوسة أو صور غريبة تثير الضحك، وربما اعتمد الشعراء في رسم الصورة الساخرة على تَصيُّد المتباعدات. وأيّاً كانت الطريقة، فقد جاءت الصوّر في الغالب معبرة عن حسّ النشوة بالنصر وحسّ الشماتة بالمنهزم، وإن تكن متفاوتة في وتيرتها، فبعضها كانت نبرته أعلى من بعض بحسب الإمكانات الفنيّة للشاعر وأهميّة المعركة التي يتحدث عنها.

Abstract

This study examined patterns of the ironic pictures of the defeated enemy during the crusades. The researcher found, through reviewing these pictures, that poets followed various methods to shape-up these pictures. Perhaps the most vivid ones those building the picture upon the contradictions and outlining the antonyms, such as hope and frustration. This was also conducted by drawing natural views in inverted pictures or eccentric pictures that elicit laughter. In their building to the ironic pictures, poets may have relied on “hunting” the “improbabilities” regardless the way they were following. Most often, the picture came out expressing the feeling of the triumph exultation and the taste of malicious joy for that the enemy was defeated, although variant in their rhythm. Some had higher intonations than others, all depending on the technical capabilities of the poets, and the importance of the battle he is composing his poetry about.

السخرية في الحرب أمرٌ مشروع، وغالباً ما تكون من الطرف المنتصر الذي يلجأ إليها أحياناً في معرض التعبير عن زهوه بالنصر، وتحقيراً لشأن الخصم أو تشفيّاً لما أصابه، وهي ردّ فعل طبيعي لما يمكن أن يعتمل في النفس من عواطف سلبيّة تجاه الطرف الآخر الذي يكون له دور في تأجيج تلك العواطف بما يَرتكب من حماقات قبل اللّقاء وفي أثنائه. وهذا ما كان يسود أجواء الحروب الصليبية، فالصليبيون كان يحركهم الصلف والغرور، وكانوا يُبالغون في إضفاء الهيبة على أنفسهم، وإطلاق التهديدات، كما كان من عادتهم الغدر بمن يقع بين أيديهم من المسلمين، والنكث بما قطعوا على أنفسهم من عهود، كل ذلك كان يؤجج النقمة في صدور المسلمين، ويجعلهم يبالغون في التعبير عن نشوة النصر، وإظهار التشفي بالخصم، ووصفه بصفات فيها قدر كبير من السخرية.

وقد كان للشعراء في عصر الدولتين ؛الزنكية والأيوبية الدور الأول والأهمّ في هذا الجانب، نظراً لطبيعة الشعر المؤهلة لحمل هذا النوع من المعاني وتحميلها قدراً كبيراً من التحدي والإثارة، فحسّ النشوة بالنصر، وحسّ الشماتة بالمنهزم، أمور قد يعجز غير الشعر عن أن يتمرس بها، أو يمنحها حقها من اكتمال التصوير.

وطبيعي أن يلتقي في قصيدة الحرب هذان الشعوران، فالشاعر من الناحية الموضوعية، في الغالب، ليس طرفاً مباشراً في المعركة، ولكنه مراقب لها، يترصد نتائجها، ومن ثمّ ينبري لتصوير تلك النتائج، عاكساً مشاعر الناس من حوله، فيما يعرف بالفرح الجماعي. ويتأتى هذا الفرح بصورتين: الافتخار بالنتائج التي انجلت عنها المعركة بالنسبة إلى الجانب المنتصر، وإبداء الشماتة بالمنهزم، وكل واحدة منهما تعني الأخرى، فحين يعبر الشاعر عن فرحه بانتصار فريقه، فهو يعبر بأسلوب غير مباشر عن سروره بهزيمة عدوه وشماتته بتلك الهزيمة، وقلب المسألة يؤدي إلى النتيجة نفسها. وإن كنّا نجد الشعراء ولا سيما في هذه المرحلة يراوحون بين مشاعر الفرح ومشاعر التشفي، فيبدأ الشاعر أولاً بالتعبير عن فرحه وفرح الجماعة من حوله وانتشائهم بالنصر، ثم ينتقل بعد ذلك إلى تصوير حالة الخصم المنهزم، وما حلّ به من كآبة وذلّ فيعبر الشاعر عن الفرح بالمقابلة بين حقيقتين هما سرور الفريق المنتصر وحزن الفريق المنهزم، وتلك هي أبسط نماذج التعبير عن نتائج المعركة.

ولمّا كان الباحث معنياً بالحديث عن ظاهرة السخرية في شعر الحروب الصليبية، فهو مضطر لأن يدع جانباً ما كان من ذلك الشعر في التعبير عن الفرح بتحقيق النصر، ليتفرغ للحديث في الموضوع الذي انتدب نفسه له، على الرغم من قناعته بصعوبة الفصل بينهما، فهما متكاملان، ولا تكتمل الصورة إلاّ بالجمع بينهما.

ووجد الباحث أنّ من أولّ الأمور التي عني بها الشعراء، في معرض تصويرهم لحال الطرف الخاسر في المعركة، وهم على الأغلب – في الوضع الذي يتحدث عنه – الصليبيون، التركيز على الحالة النفسية للمنهزم، والعنصر المهمّ في تصوير تلك الحالة هو عنصر الخوف. وقد فرقوا بين نوعين من الخوف: الخوف الذي يدب في نفوس الخصوم قبل القتال، وربّما أدى إلى إحجام عن المواجهة تحقيقاً لمقولة:" نُصرت بالرعب"، وليس هو المعني هنا، وأمّا النوع الثاني فهو الخوف الذي تُسفر عنه نتيجة المعركة، وهو المقصود.

والحديث عن الخوف في شعر الحرب أمر طبيعي، ولكنه الخوف الذي يسلم صاحبه للأوهام والتخيلات المرعبة في النهار، حتى ليحسب الرُّبا جيوشاً، وموج البحر أساطيل متتابعة، فإذا جنّ الليل افترسته الكوابيس المنغصّة، فلا ليله ليل ولا نهاره نهار، بل هو رهن لحالة انهيار نفسي مرعب، ومن ذلك الصورة التي وصف فيها أسامة بن منقذ جيش الفرنجة في بعض الوقائع(١):

وقسمت الفرنج شطرين   فهذا عانٍ وهذا قتيل
والذي لم يحن بسيفك من خو   فك، أمسى وعقله مخبول
مثَّل الخوفُ بين عينيه جيشاً   لك في عقر داره ما يزول
فالربى عنده جيوش، ومَوجُ البحر في كلّ لُجّةً أُسطول
وإذا ما أغفى أَقَضّ به المضجعَ في الحُلم سيفُك المسلول

فانتقل أسامة من الوضع التقريري لمعنى النصر بالرعب، إلى رسم صورة جديدة من صور الاضطراب النفسي الذي يحل بالمنهزم، صورةٍ مشبعة بالتشفي والسخرية، فمن نجا من جيش الفرنجة من الموت، أو أخطأه الأسر،وقع في شر الثلاثة، فريسة لمرض نفسي عضال.

وبتجاوز عنصر الخوف، وهو عنصر مشترك، في الغالب، بين جميع قصائد الحرب في سائر العصور، نجد الشعراء في هذا العصر قد اتبعوا طرقاً مختلفة في السخرية من العدو المنهزم، وبعض تلك الطرق تظهر فيه السخرية بشكل واضح، وبعضها لا يُحسّ المرء معها أنها توحي بذلك لأول وهلة، فإذا ما اعتمد الشاعر على إظهار المفارقات، وتحدث عن ضخامة جيش العدو وتجهيزاته وثقته

---

(١) الأبيات من قصيدة قالها في مدح طلائع بن رُزّيك سلطان مصر في زمن الفائز.

انظر ديوان أسامة بن منقذ، تحقيق: د. أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد عالم الكتب، بيروت، ط٢، ص٢٤١.

بالنصر، ثمّ ما لقيه من مصير مناقض لذلك، معلياً التقابل بين جانبين: الأمل وخيبة الأمل، حسبت أنه قرر فحسب، ولكنه تقرير مشوب بلسعة خفية من السخرية،على نحو ما فعله شرف الدين بن عُنَيْن(١) في حديثه عن فتح دمياط (٦١٨هـ) (٢):

غداة لقينا دون دمياط جحفلاً   *من الروم لا يحصى يقيناً ولا ظنّا*
قد اتفقوا رأياً وعزماً وهمّةً   *وديناً وإن كانوا قد اختلفوا لُسنا*
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت   *جموعٌ كأن الموج كان لهم سُفنا*
عليهم من الماذيّ كلّ مفاضة   *دلاصٍ كقرن الشمس قد أُحكمت وضنا*
وأطمعهم فينا غرورٌ فأرقلوا   *إلينا سراعاً بالجياد فأرقَلنا*
فما برحت سُمر الرماح تنوشهم   *بأطرافها حتّى استجاروا بنا منّا*
لقد صبروا صبراً جميلاً ودافعوا   *طويلاً فما أجدى دفاعٌ ولا أغنى*
لقوا الموت من زرق الأسنة أحمراً   *فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنّا*
أسود وغى لولا قراع سيوفنا   *لما ركبوا قيداً ولا سكنوا سجنا*

فلم يعمد ابن عُنَيْن إلى السخرية بشكل مباشر وإنما اعتمد على إظهار التناقض بين المقدمات والنتائج، وهذا التناقض حمل معاني عدّة من بينها السخرية.

وربما بدت السخرية في مثل هذا النمط من التعبير بصورة أوضح، كما نرى في قصيدة للحكيم الجلياني(٣) قالها في فتح طبريا (٥٨٣ هـ)، فقد بناها على المفارقات جامعاً بين ما يُتوقع وما لا يُتوقع، فقال(٤):

---

(١) محمد بن نصر الله بن مكارم، شرف الدين، كوفيّ الأصل، دمشقي المولد والنشأة، كان مقدما بين شعراء زمانه. (الوافي بالوفيات ٥: ١٢٢).

(٢) من قصيدة قالها ابن عنين في مدح الملك المعظم عيسى بن الملك العادل، ومطلعها:
سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنّا   إذا جهلت آياتنا، والقنا اللّدنا
انظر ديوان: ابن عنين، تحقيق: خليل مردم، مطبعة دمشق، (١٩٤٦).

(٣) عبد المنعم بن عمر بن عبد الله الغسّاني الأندلسي الجلياني، عاش في الشام، وامتهن الكحالة والطب وبرع فيهما، كما برع في الأدب وصناعة الشعر. (عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦٣٠).

(٤) انظر الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة المقدسي (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم ٦٦٥هـ) تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج٣، ص٤٠٧.

أتوا بحبال أبرمت لإسارنا   فسقناهم فيها قطيناً مجددا
وساموا تجاراً تشترينا غوالياً   فبعناهم بالرّخص جهرا على الندا
وجرّوا جيوشاً كالسيول على الصوا   فآضت غُثاءً في البطاح مُمددا
وقالوا: ملوك الأرض طوع قيادنا   إذا الكل منهم في القيود معبّدا
وقد أقطع الكند العراق موقعاً   فأودع سجناً وسط جلق موصدا
وأقسم أن يسقي بدجلة خيله   فما ورد الأردن إلاّ مصفدا

وبعيداً عن الشعر المبني على إظهار المفارقات، فإن الشعراء يعمدون في الغالب إلى السخرية المباشرة، وقد يكتفي الشاعر بتقرير واقع الحال، دون أن يسمح لروح الشماتة بالتغلغل في الصورة التي يصف فيها استشعار الأسير بالذلّه، على نحو ما فعل أحدهم(١).

ما رأينا فيما تقدم يوما   كامل الحسن غاية في البهاء
مثلَ يوم الفرنج حين عَلَتهم   ذلَةُ الأسر والبلا والفناءِ
وبراياتهم على العيس زُفّوا   بين ذلٍّ وحسرةٍ و عناءٍ
بعد عزٍّ لهم وهيبة ذكرٍ   في مصاف الحروب والهيجاءِ

ومن أبرز القصائد المبنيّة على السخرية قصيدة ابن مطروح(٢) التي نظمها على أثر هزيمة الفرنسيس وعساكره في دمياط، وفيها يقول(٣):

قل لِلْفرَنْسِيس إذا جئَتَه   مقال صدْقٍ من قؤول نَصيحْ
آجرك اللهُ على ما جرى   من قتل عُبّاد يسوعَ المسيحْ

---

(١) الأبيات ليست منسوبة لأحد، ولم يتسنَّ لي معرفة صاحبها، انظر: الروضتين ج١، ٣٤٤، وتاريخ دمشق لابن القلانسي، تحقيق: د. سهيل زكار، دار حسان، دمشق، (١٩٨٣)، ٥٢٤.

(٢) جمال الدين، أبو الحسن بن يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين، ولد ونشأ في صعيد مصر ثم قدم القاهرة فبرع في الكتابة والأدب، وتوثقت صلته بالملك الصالح نجم الدين أيوب، فكتب له ومدحه في شعره (النجوم الزاهرة ٧: ٢٧):

(٣) انظر: "العبر في خبر من غبر"، الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد ٧٤٨ هـ)، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، ج٤، (١٩٦٣)، ٣٨-٣٩.

أتيت مِصراً تبتغي مُلكها   *تزعم أن الزَّمر يا طبلُ ريح*
فساقك الحَيْن إلى أدهمٍ   *ضاق به في ناظريك الفسيح*
وفقك الله لأمثالها   *لعل عيسى منكم يستريح*
وقل لهم إن أضمروا عودةً   *لأخذ ثأرٍ، أو لقصدٍ قبيح*
دارُ ابن لُقمانَ على حالها   *والَقْيدُ باقٍ، والطّواشي صَبيحْ*

وتستمد أبيات ابن مطروح قوّة السخرية فيها من اقترابها من اللهجة المحكيّة في بعض عباراتها، ومن استعماله الأدعية مقلوبة، فغدت ، بحسب رأي الدكتور شوقي ضيف، ذات طابع شعبي كان يحفظها كل مصري لعصره، وما زال يرددها المصريون إلى اليوم...(١).

والحديث عن قصيدة ابن مطروح يذكّر بما قاله ابن إسرائيل(٢) في المناسبة نفسها، إذ قال(٣):

إنّ غفارة الفرنسيس التي   *جاءت حِباءً لسيِّد الأمراءِ*
ببياض القرطاس في اللّون، لكن   *صَبَغتها سيوفنا بدماءِ*

وليس ضرورياً أن يكون الخصم من الفرنجة حتى تكون السخرية، إذ كان السلطان صلاح الدين، ومِن قبله الملك العادل نور الدين يحاربان في غير جهة، فإلى جانب مقارعتهما الفرنجة، كانا يضطران إلى محاربة بعض الحكام المسلمين الذين استقلوا ببعض النواحي، وربما زيّنت لأولئك الحكام أحلامهم التحالف مع الفرنجة من أجل المحافظة على ملكهم، ولما كان أولئك يقفون حجر عثرة في وجه تقدم الجيش الإسلامي وامتداده في مواجهة الصليبيين، كان لا بد من دعوتهم إلى الانضمام مع الجماعة أو حربهم، وكثيراً ما كانت الأمور تفضي إلى منازلة أو حصار، ثمّ إلى الاستسلام.وفي هذه الحالة كان الشعراء يُنزلون أولئك الرافضين منزلة العدو، ولا يترددون في إظهار الشماتة بهم

---

(١) الشعر وطوابعه الشعبية، دار المعارف، القاهرة، ط٢، (١٩٨٤)، ص١٦٤

(٢) محمد بن سوار بن إسرائيل بن الخضر(٦٧٧ هـ) شاعر مشهور متصوّف قادر على النّظم، وهو من أهل دمشق، ولد وعاش فيها. (فوات الوفيات، ٣: ٣٨٣)

(٣) الذيل على الروضتين: ١٨٤.

والسخرية منهم، ومن ذلك ما فعله ابن سناء المُلك(١) على أثر استيلاء صلاح الدين على حلب (٥٧٩ه) بعد أن عجز واليها عن الدفاع عنها(٢) فقال(٣):

خافت وخاف وفرّ المالكون لها　　*فالمُدن في رَهَب، والقومُ في هَرَب*
ثم استجابت فلا حصن بممتنــــع　　*منها عليه، ولا مُــلك بمُحتَجِــبِ*
وأصبحوا منه في همٍّ، وصبّحَهم　　*وهم سكارى بكأس اللهو والطرب*
تفرّغوا لنعيم العيش واشتغــلوا　　*عن الثغــور بلثم الثغــر والشنب*
أرض الجزيرة لم تظفر ممالكها　　*بمالــك فطــنٍ أو سائــسٍ ذرِب*
ممــالك لــم يُدَبّــرها مُدَبــرها　　*إلّا برأي خصيٍّ أو بعقــل صبي*

وقد يلجأ الشاعر المسلم إلى السخرية من المنتصر، عندما يكون المنتصر هو العدو، ويبدو هذا غريباً في أول الأمر، ولكن الغرابة تتضاءل عندما يقرن الشاعرسخريته بالنتائج الهزيلة التي أسفر عنها النصر. والتقليل من شأن انتصار العدو عادة مرعية عند الشعراء، ومن ذلك قول ابن الدهان(٤) على أثر انتصار الفرنجة في حصن الأكراد سنة ٥٥٧هـ(٥):

بني الأصافــر ما نلتــم بمكــركم　　*والمكر فـــي كــلّ إنســان أخــو الفشــل*
وما رجعتم بأسرى خــاب سعيكم　　*غيـــر الأراذل والأتبـــاع والسّفـــلِ*
سلبتم الجُــردَ مُعراة بــلا لُجُــم　　*والسّمرَ مركوزةً والبيضَ في الخلِل*(٦)

---

(١) أديب وشاعر مجيد، ذاع صيته وشاع ذكره، وقد ترك شعراً كثيراً كما ترك مؤلّفاً في الموشحات سماه: دار الطراز وكانت وفاته سنة ٦٠٨ هـ، (معجم الأدباء ١٩: ٢٦٥)

(٢) انظر خبر الفتح في: الرّوضتين، ج٣، ١٥٧.

(٣) انظر ديوان ابن سناء الملك، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، ود. حسين محمد نصّار، دار الكاتب العربي، القاهرة (١٩٦٩)، ج٢، ١-٤.

(٤) المهذب عبد الله بن أسعد بن علي، من أهل الموصل، وكان شاعراً مجيداً، وله بصرٌ بالنحو، وتوفي في حمص سنة٥٨١. (النجوم الزاهرة ٦: ١٠٠)

(٥) الأبيات من قصيدة في مدح الملك العادل نور الدين، انظر ديوان ابن الدهان، تحقيق: عبد الله الجبّوري، مطبعة المعارف، بغداد (١٩٦٨)، ص:٧٠ وما بعدها.

(٦) الخلل، "جفون السيوف"، واحدتها خلة، (اللسان، مادة: خلَلَ).

هل آخذُ الخيل قد أردى فوارسها　　مثال آخذها في الشكل والطول[1]
أم سالب الرمح مركوزاً كسالبه　　والحرب دائرة من كفِّ معتَقلِ

ويتأتى الشاعر إلى السخرية بأساليب مختلفة، ومن ذلك أن يعمد الشاعر إلى رسم أوضاع طبيعيّة في صور معكوسة، على نحو ما فعل ابن القيسراني حين مدح نور الدين، فرأس البرنس يحتاج إلى وساد، ومن السخرية أن يكون السنان وساداً له، ومن السخرية كذلك أنّه لمّا ترجل عن ظهر فرسه أركبوه فرساً جديداً وما فرسه الجديد إلاّ عصا الرّمح، وأضحى في محله الجديد غضيض المُقلتين مع أنه غير نعسان، وغائر العينين وليس فيهما سهاد، فقال ابن القيسراني[2]:

وللإبرنس فوق الرمح رأس　　توسّد، والسنان له وساد
ترجّل للسّلام ففرّسوه　　وليس سوى القناة له جواد
غضيض المقلتين ولا نعاس　　وغْائرها وليس به سهاد

ومهر ابن القيسراني في تقديم نماذج مختلفة من السخرية بالخاسر في الحرب، فهو يعود إلى الحادثة الواحدة بصورة مختلفة، فرأس البرنس الذي كان من قبل مُتوسداً السنان، وُصف في موقع آخر بأنه ثمرة للقنا، ومن العجيب أن يطلع القنا ثمراً، وحين تبتغي القناة في رأسه نفقاً، فإنها تجد سرباً لثعلبها في نحره[3]:

عجبتُ للصّعدةِ السمراء مثمرةً　　برأسه، إن اثمار القنا عجَبُ
إذا االقناة ابتغت في رأسه نفقاً　　بدا لثعلبها من نحره سرَبُ

---

[1] الشكل وكذلك الطول: الحبل تشد به قوائم الدابة. (اللسان: شكَلَ وطَوَلَ)

[2] محمد بن نصر بن صغير القيسراني، ولد بعكا، ونشأ بقيسارية فنسب إليها، ثم رحل إلى حلب فدمشق، وفي دمشق كانت وفاته سنة ٥٤٨هـ، ووصف بأنه شاعر زمانه.الخريدة، شعراء الشام / ١: ٩٦). والأبيات من قصيدة لابن القيسراني في مدح نور الدين، أنشده إياها بظاهر حلب، وقد كسر الفرنج على يغرا سنة٥٤٣ هـ. انظر الروضتين، ج١ ص٢٠٠، وانظر: شعر ابن القيسراني د. عادل جابر، الوكالة العربية للتوزيع،الزرقاء، (١٩٩١)، ٤٧.

[3] انظر الروضتين، ج١، ٢٠٩ - ٢١٠.

وقد تتم السخرية بالاهتداء إلى صور غريبة مضحكة، فيفاجئ الشاعر قراءه ومستمعيه بصور لم تُؤلف من قبل، مما يشهد له بالإبداع والاختراع، ومن ذلك قول العماد الأصفهاني(١) في رأس البرنس(٢):

وغاص إذ طار ذاك الرأس في دمه كأنه ضفدع في الماء قد غطسا
ما زال يعطس مزكوماً بغدرته والقتل تشميت من بالغدر قد عطسا

فصورة الرأس الذي غاص بالدم، وتشبيهه بالضفدع، وذكر العطاس بسبب الغدر، وتشميته بالقتل، صورتان نادرتان تتسمان بالجمال والغرابة.

وربما تبدو الصورة مألوفة، ولكن عرضها في إطار جديد، أكسبها عنصر الجدّة، ولا شكَّ في أن جدّة الصورة أو غرابتها أمر نسبي، فوصف العماد رأس البرنس بأنه يابس وأنه كان لا بد من أن يُبَلّ يبسه بما يجعله نديّاً، فكانت تنديته بحسام أسال دمه، ظاهرُه يوحي بالإلف، وحقيقته تنطبع بالجدّة، قال العماد(٣):

شكا يبساً رأس البرنس الذي به تندّى حسامٌ حاسم ذلك اليُبسا

ويصدق هذا إلى حدّ بعيد على وصف العماد المتعة التي أحسها السيف وهو يحتسي دم البرنس الذي أُريق بسبب غدره(٤):

حسا دمه ماضي الغرار لغدره وما كان لولا غدره دمُه يُحسى

وعلى تشبيهه رأس البرنس وقد عمل فيه السيف عمل المندف بكَتلةٍ من القطن أو الصوف(٥):

نسفت به رأس البرنس بضربةٍ فأشبه راسي رأسِه العِهْنَ والبُرسا

---

(١) محمد بن محمد بن حامد، من أهل أصفهان، وقدم بغداد شابّاً، فاشتغل في صناعة الإنشاء، ودخل في خدمة نور الدين، ثم انتقل إلى خَلَفه صلاح الدين، ومن مؤلفاته المشهورة: "خريدة الدهر" و" البرق الشامي". (معجم الأدباء ١٩: ١١).

(٢) انظر ديوان عماد الدين الأصفهاني، جمع وتحقيق: د. ناظم رشيد مطبعة جامعة الموصل (١٩٨٣)، ٢٢٩.

(٣) المصدر السابق: ٢٣٥.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

كما يصدق بدرجة أعظم على الصورة التي رسمها العماد للسيف، وهو يلحس دم ذلك الغادر، الذي كان قد غلى في أوداجه، فشخبه السيف، ثم أخذ يتلذذ بلحسه(١):

تَبَوّغ في أوداجه دمُ بغيهِ *فصال عليه السيف يلحسُهُ لحسا*

وقد يوفّق الشاعر في تصيُّد المتباعدات لصنع صورة جديدة يكون لها وقع قويّ، ومن ذلك قول العماد(٢):

ومن عجبٍ صلّت لقبلة بأسهم *رؤوس أعادٍ مِن ظُباهم محيضها*

فنسبة الحيض إلى الرؤوس، واقتران ذلك بتوجّهها إلى الصلاة مستقبلة معسكر المسلمين، بما تعنيه الصلاة من معاني الخشوع والتذلل، فيه قدر كبير من السخرية والتهكم.

ومثله قول ابن المجاور(٣) على إثر فتح يافا(٤):

سَنّت سيوفك في الرؤوس ختانةً *ذهبت بمهجة كلّ عِلْجٍ أقلَف*

فعلوج الفرنجة قُلف، وسيوف المسلمين طبّقت فيهم السُنَّة فخَتَنْتهم، ولكن ختانهم كان في رؤوسهم، على غير المألوف.

وقول ابن المجاور أيضاً في المناسبة نفسها(٥):

واعجب لرُمح بالرؤوس مُعمّم *واطرب لسيف بالدماء مُغلّف*

فالرمح في أيدي المسلمين اتخذ لنفسه عمامةً مسايرةً لسُنّة معتقليه، وما عمامته التي راح يزهو بها إلاّ رؤوس القتلى من الفرنجة، في حين اتخذ السيف لنفسه جراباً وما جرابه في هذه المرة إلاّ دماء الأعادي، ووضع الرّمح والسيف على هذا النحو، في رأي الشاعر أمر يستدعي العجب والطرب.

---

(١) ديوان العماد: ٢٣٦.

(٢) الروضتين: ج٢ ص٣٨٨.

(٣) نجم الدين يوسف بن الحسين (الروضتين: ٤/ ٣٢٨).

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر نفسه.

وثمّة صورة أخرى من الصور القائمة على السخرية، يمكن إدراجها ضمن ما سمي بتصيّد المتباعدات ولكنّ تكرار هذه الصورة لا يسمح لها بتجدد تأثيرها، لأنها سرعان ما تصبح مبتذلة، كما في قول ابن منير(١) الطرابلسي(٢):

ورأى سيوفَك كالصوالج طاوَحت   مثلَ الكُرينِ تقلّصت كرّاته

فشبه السيوف بعصا الصولجان، والرؤوس وهي تتناثر بفعلها بالكرات تجري أمامها. ومثل ذلك قول العماد(٣):

صوارمهُ صوالجهُ إذا ما   رؤوس عداه كانت كالكرين

وكثيراً ما تجيء السخرية في صور مألوفة لا غرابة فيها، ولكنها تمثّل عنصراً مهماً في تضخيم المنظر أو توضيحه، كقول العماد(٤):

عدوّك كالذباب له طنينٌ   وفيه ذُباب سيفك ذو طنين

وقول ابن سناء المُلك(٥):

تَطيرُ إليه طالباتٍ أمَانهُ   ومعتذراتٍ منه أيْدٍ وأرؤُسُ

وقوله كذلك(٦):

ترى بَيْضَهم بعد اللّقاء كأنما   أحاط بهم من أسهم القسِّ قُندسُ

وقول فتيان الشاغوري(٧)(٨):

---

(١) أبو الحسن، أحمد بن منير بن أحمد، أحد مشهوري عصره في نظم الشعر، وكانت إقامته في دمشق، وفيها توفي سنة٥٤٨ هـ. (وفيات الأعيان : ١٥٦/١).

(٢) انظر ديوان ابن منير: ٢١٣.

(٣) في مدح الملك المُظَفّر تقي الدين (البرق الشامي :٣ :٤٨)

(٤) المصدر السابق: ٤٩/٣.

(٥) ديوان ابن سناء الملك:ج١٧٢/٢

(٦) المصدر السابق.

(٧) فتيان بن علي الأسدي، المنعوت بالشهاب الشاغوري، نسبة الى الشاغور بظاهر دمشق، وله حديث وشعر كثير، وكانت وفاته سنة ٦١٥هـ. (جريدة القصر – شعراء الشام – ٢٤٧/١).

(٨) ديوان فتيان الشاغوري، تحقيق: أحمد الجندي، المطبعة الهاشمية – دمشق ١٩٧٦، ص٦٩.

غَزَلتهُمُ أطماعهم حتّى إذا   ما استيْأسوا نَقَضَتْهُمُ أنكاثـــا

وقوله كذلك(١):

صرعى كأنهم تماثيل من الكافور من دمهم رُدِعنَ بعنبــر

وقوله في موقف ثالث(٢):

حُصدوا، وكان الغدر بذرَهُمُ فقد   دُرِسوا به وذُروا بأوخم بيْدرِ

ومثل هذا كثير.....

الخاتمة

كانت تلك صورٌ من سخرية الشعراء من العدو الصليبي الذي استفحلَ شره، فطغى وبغى، زحفت جُموعُه من أوروبا إلى مشرق العالم الإسلامي، فصادفت فرصاً سانحة مكنتها من احتلال مدن وإقامة ممالك وإمارات. وزيّن لها غرورها أن تمدّ من رقعة احتلالها، ولم تبال في سبيل ذلك من أن ترتكب حماقات من بطش وتنكيل وغدر وخيانات أوغرت عليهم صدور الناس، فاستغل الشعراء الوقائع التي كانت تدور فيها الدائرة على الفرنجة الأعداء ليّعبروا عن الفرح الشعبي بانتصار المسلمين، ويعربوا عن شماتتهم بهزيمة الصليبيين، مستخدمين أساليب مختلفة للتعبير عن تلك الشماتة، ونجح بعضهم في التعبير عنها برسم صور ساخرة للعدو وقد حلّت به الهزيمة، لا نبالغ إذا قُلنا إنّه يمكن أن تنتقل بنا - حين نقرأها – من حالة التبسم إلى حالة القهقهة.

ولسنا ننكر أن كثيراً من الصور الساخرة في شعر الحروب الصليبية كانت صوراً مكرورة، وأن بعضها كانوا قد سُبقوا إليه، فنجد له نظيراً في قصائد الحرب قبل هذا العصر، ولكننا لا ننكر كذلك أن الشعراء الزنكيين والأيوبيين قد ابتكروا صوراً جديدة من صور السخرية خرجت من حد الإمتاع إلى حد الإبداع.

---

(١) المصدر السابق: ١٤٦.

(٢) المصدر نفسه.

المصادر والمراجع

١) ابن أبي أُصيبعة، أحمد بن القاسم (٦٦٨هـ):
عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتعليق: د. نزار رضا، دار مكتبة الحياة بيروت (د.ت).

٢) ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف (٨٧٤ هـ):
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة (د.ت)

٣) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد(٦٨١ هـ):
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (١٩٧٧).

٤) ابن الدهان، مهذّب الدين عبد الله بن أسعد الموصلي (٥٨١ هـ):
ديوان ابن الدهان، تحقيق: عبد الله الجبوري، مطبعة المعارف، بغداد، (١٩٦٨).

٥) ابن سناء المُلك، هبة الله بن جعفر بن محمد، (٦٠٨هـ):
ديوان ابن سناء الملك، تحقيق محمد إبراهيم نصر والدكتور حسين نصّار، دار الكاتب العربي، القاهرة، (١٩٦٩).

٦) ابن عُنين، شرف الدين محمد بن نصر(٦٣٠هـ):
ديوان ابن عنين، تحقيق: خليل مردم، مطبعة دمشق(١٩٤٦)

٧) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد(٥٥٥هـ):
تاريخ دمشق، تحقيق: د.سهيل زكار، دار حسان، دمشق(١٩٨٣)

٨) ابن القيسراني، محمد بن نصر (٥٤٨هـ): ديوان ابن القيسراني، تحقيق: د. عادل جابر صالح، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، الزرقاء، (١٩٩١).

٩) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم(٧١١ هـ):
لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت)

١٠) ابن منير الطرابلسي، أحمد بن منير(٥٤٨هـ):
ديوان ابن منير، جمعه وقدم له: د.عمر عبد السلام تدمري، دار الجيل، بيروت، (١٩٨٦).

١١) أبو شامة المقدسي، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل(٦٦٥هـ):
الذيل على الروضتين، تصحيح: محمد زاهد الكوثري،ط٢، دار الجيل، بيروت، (١٩٧٤).
الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٩٩٧).

١٢) أسامة بن منقذ(٥٨٤هـ):
ديوان أسامة بن منقذ، تحقيق: د. أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، ط٢، عالم الكتب، بيروت، (١٩٨٣).

١٣) الذّهبي، شمس الدين محمد بن أحمد(٧٤٨هـ):
العِبر في خبَر من غبَر، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت(١٩٦٣)
١٤) شوقي ضيف:
الشعر وطوابعه الشعبيّة على مر العصور، ط٢، دار المعارف، القاهرة، (١٩٨٤)
١٥) الصّفدي، صلاح الدين خليل بن أيْبك(٧٦٤ هـ):
الوافي بالوفيات، تحقيق: دريدرينغ، دار صادر، بيروت، (١٩٧٠)
١٦) عماد الدين الأصفهاني، محمد بن محمد بن حامد(٥٩٧هـ):
البرق الشامي (ج٣)، تحقيق: د. مصطفى الحياري، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمّان(١٩٨٧)
جريدة القصر وجريدة العصر، (قسم شعراء الشام)، تحقيق: د. شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، دمشق، (١٩٥٥)
١٧) فتيان الشاغوري، فتيان بن علي الأسدي(٦١٥ هـ):
ديوان فتيان الشاغوري، تحقيق أحمد الجندي، المطبعة الهاشمية، دمشق، (١٩٧٦).
١٨) الكتبي، محمد بن شاكر، (٧٦٤ هـ):
فوات الوفيات، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (١٩٧٣).
١٩) ياقوت الحموي(٦٢٦هـ):
معجم الأدباء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).